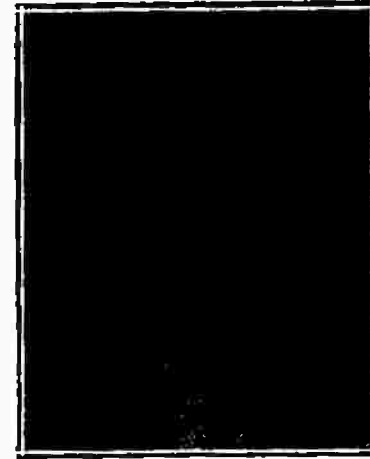


الربيعية في الإسلام

العلاقات بين مصر وبيزنطية

في عهد الدولة الفاطمية

للاستاذ محمد عبد الله عنان



كانت بغداد محور السياسة الإسلامية في المشرق يوم كانت الدولة العباسية في ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ يصرها إلى بغداد قلب الإسلام النابض ، ترقب

حركاتها ومشاريعها ، وتحوط لغزواتها وغزواتها . وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريبا أيام الرشيد والمأمون والمعتصم ؛ ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فنذ أواخر القرن التاسع تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخجوا فيها فتوة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التي بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافة ، غدت في ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تبحر بمختلف الاطباع والمشاريع ، وألقت الدولة البيزنطية في قيام الدولة الحديانية بالشام ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الاخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب انقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الإسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشام . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفره جيوشها وأساطيلها ما يندب بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها

تواجه على يد هذه الدولة القوية فتوة إسلامية جديدة تضطرم قوة وفتوة وطموحا ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها في يقظة وجرع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذي كان يهددها في موطنها الجديد ، ويكاد يندرها بالمحو والفناء العاجل . وألقت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشام من الإضطراب والفوضى ، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب ؛ وكانت الدولة الحديانية في حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية إستبقاء لحياتها ، وإتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمي تدفعهم عنها ، غزا الروم الشام ، وعاثوا في سواحله واستولوا على أنطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يسيطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشام .

وفي عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألنى الفاطميون والروم أنفسهم في سهول الشام وجها لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والوهن في عصر الأسرة البسيلية ، ولا سيما في عهد الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الاتقاض أو الخروج في المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاثة بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ - ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الامبراطور باسيل الثاني بنفسه إلى الشام وغزا حص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير في حوادث الشام ، وهم العزيز بالمشير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أبركه في الطريق ؛ وخلفه ولده

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية وحروبها في البلقان وأرمينية، وقنعت من الشام بانطاكيا، وهذا النضال بين الدولتين حيناً، وتحسنت العلاقات بينهما؛ ولكن سياسة الحاكم بأمر الله إزاء النصارى، واشتداده في مطاردتهم، وما اتخذ من الاجراءات العنيفة لهدم الكنائس والاديار، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) بيت المقدس أثارت حفيظة السياسة البيزنطية. وحفيظة الكنيسة الشرقية التي كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية في المشرق؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل في سير الحوادث. وكانت الاميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة وتجاهد في تلطيفها، وكان لها حسبها تؤكد الرواية أكبر يد في تدير مصرع أخيها وانتقاد الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة. فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم، وقام ولده الظاهر في عرش الخلافة بتدير ست الملك ورعايتها، عادت الخلافة الفاطمية في الحال إلى تساعها المأثور نحو النصارى، وردت اليهم حرياتهم وحقوقهم، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم، ولاسيما كنيسة القيامة، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية، فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثاني ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٤ م) ويطلعه على ما اتخذ به بلاط القاهرة من الاجراءات لتحرير النصارى ورفع الارهاق عنهم وحمايتهم في أموالهم وأنفسهم؛ ولكن الاميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته، ورد به بلاط قسطنطينية بلطف، فعاد ادراجه، ولم يمض قليل حتى توفي باسيل الثاني (١٠٢٥ م).

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمني في سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية؛ ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت في الأعوام التالية في عدة معارك وحروب محلية في حلب وانطاكية مع الأمراء العرب المحليين، وهزمت أمامهم غير مرة، فإن حكومة القاهرة لم تشأ أن تتدخل في تلك المعارك ولا أن تنهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين؛ ووفعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لأعزاز دين الله والامبراطور رومانوس الثالث لعقد معاهدة

الحاكم بأمر الله طفلاً، وتولى تدير شؤون المملكة وصيه برجوان الصقلي؛ واضطربت حوادث الشام حيناً، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة في صور، وسار الروم في البر والبحر لموازرة الثوار؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف، فبعث إلى الشام بجيش كبير، استطاع أن يخمّد الثورة، وأن يهزم البيزنطيين في عدة مواقع (٣٧٨ هـ - ٩٩٨ م)، واضطر باسيل الثاني أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى. ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال:

وهكذا لبثت الشام مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية. كانت السياسة البيزنطية ترى في قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشام خطراً جديداً عليها، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطي عنها، ولم تكن تجيش في ذلك بأكثر من نزعة دفاعية، بينما كانت الدولة للبيزنطية تجيش في عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع. وكانت الخلافة الفاطمية تنوق إلى اقتمام الأحداث والحروب الخارجية لتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور في الشام واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكري، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية، فبعث إلى الامبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة، فاستجاب باسيل الثاني لدعوته، وانتقد سفارة إلى بلاط القاهرة؛ واحتق البلاط الفاطمي بالسفير البيزنطي احتفاء عظيمًا وزين الديوان الخلفي لاستقباله زينة تنوء الرواية بفخامتها وروعها؛ واتدب برجوان اريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الاميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله للسير مع السفير البيزنطي وتقرير شروط الهدنة مع القيصر وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين؛ فسار اريسطيس إلى قسطنطينية، وقام بالمهمة؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشرين سنة؛ وأقام اريسطيس في عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفي؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ولكن المرجح انها وقعت في أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ (سنة ١٠٠٠ م).

الدولة في الداخل والخارج ؛ ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلائهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الإسلامية ؛ تلك هي ثورة الحروب الصليبية التي اضطرت منذ أواخر القرن الحادي عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الاسلام ؛ وحلت المملكة اللاتينية في بيت المقدس مدى حين ، وقامت الامارات النصرانية في الشام حاجزا بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلاقات الدبلوماسية بين الاسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرب ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال

محمد عبد الله عناه



الاتحاد الصحفي الإسلامي

فلسطين

مركز صحفي في القدس

بیت المقدس ٥٦٨٥٤ - القرن الثاني الهجري - ١٩٦٤ م

لكل جديد لذة ورواج

إدارة نشر وترويج الصحف الإسلامية تقدر هذه الحقيقة. فتبادر دائما بأن تسبق غيرها وتقدم لعملائها كل جديد من الصحف والكتب الحديثة حال ظهورها. قبل أن تتداولها الأيدي. لأنها تضع مصلحة عملائها نصب عينها وتسهر دائما على أن تجلب لهم كل ما فيه يسرهم ورضاؤهم لاعتقادها أن في يسرهم ورضاؤهم يسرا ورضاها لها. وأن تقدمهم يعود عليها كما يعود عليهم بالخير والبركة. فلا تزال دائبة على أن تنهز أعمالها أعظم الفرص التي تكسبهم الشهرة والرواج ودوام الحركة فبادر حالا بأن يكون اسمك في قائمة عملائها العديدين في الشرق والغرب ، وقدم لها الرصيد الكافي لطلباتك فكل طلب لا يكون مصحوبا بالنقد لا يلتفت إليه .

والادارة لا ترسل بضائعها بطرق التحويل ما لم يصلها معقم الثمن ، وأسعارها محددة لا تقبل مساومة شعارها دائما : الدين المعاملة ، والتعاون على البر والتقوى

صداقة بين الدولتين ، واشترط الامبراطور لعقدها ان يتولى اعادة تعمير كنيسة القيامة وان يعمر النصارى ماشاءوا من كنائسهم الدارسة ، وان يقيم بطريركا من قبله لبيت المقدس ، وان تمتنع حكومة القاهرة من التعرض لشؤون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلية في حماية الامبراطور وتؤدي له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلي عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للامبراطور ان يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمرؤا كنائسهم وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الامبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وأن يعيد مسجد قسطنطينية كما كان ويسمح فيه بالأذان وبالخطبة للظاهر ؛ بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام في عهد المستنصر بالله

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر اضطربت شؤون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلاقات بين مصر وبيزنطية ، وجانت مصر في أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية تعرف بالشدة العظمى (٤٤٦-٤٤٤ هـ) وأرسل المستنصر بالله إلى الامبراطور قسطنطين التاسع أن يعده بالغلل والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الامبراطور توفي قبل تنفيذ الاتفاق ، خلفته الامبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطا جديدة أباهما المستنصر ، واضطربت علاقات الدولتين ، واشتبك الفريقان في عدة معارك شديدة في البر والبحر ؛ وفي سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضي أبو عبد الله القضاعي ليحاول تسوية العلاقات واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم ، وأخفق سعي السفير المصري ؛ وكانت فورة السلاجقة قد اضطرت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشام ، وتطورت حوادث الشام في الوقت نفسه تطورا سيئا ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائيا ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعفت قوى